عوامل الضعف في المشرق الإسلامي (ق 5– 6هـ/ق11– 12م)

واستيلاء الفرنجة على الساحل الشامي

The reasons behind the decline of the Islamic Empire in the middle East(11th-12th.c) and the European dominance in the Syrian coasts

د. حديد مختار

المدرسة العليا للأساتذة– بوزريعة – hadidmoktar3@gmail.com

تاريخ الاستلام: 27 /2021/05 **تاريخ القبول:** 2021/10/21 **تاريخ النشر:** 10 /2022/01

ملخص:

الهدف من البحث إدراك عوامل الضعف في المشرق الإسلامي خلال القرنين (5–6هـ/ 11–12م) التي أطمعت فيه كلّ عدوّ متربّص وجرّأت عدّة شعوب على غزو بلاد المسلمين وإلحاق محن عظيمة بهم، خاصة خلال ما يعرف بالحروب الصليبية وتكمن أهمية إدراك هذه العوامل في الاعتبار بها وإيضاح مدى خطورتها ومقارنتها بأسباب ضعف الأمة خلال العصر الحاضر.

ويعد التفكك السياسي وانعكاساته من أبرز عوامل الضعف؛ إذْ كان المشرق منقسما إلى عدّة دول وإمارات وتكرّس هذا الانقسام لعدّة أسباب؛ منها أثر التطورات السابقة، ووجود القابلية للتفكك. فأفضى هذا الواقع إلى نشوب الصراعات والفتن واستنجاد بعض الأطراف المنخرطة فيها بالفرنجة، وتصاعد نشاط الفِرَق المنحرفة فتعاظم خطرها. ومن عوامل الضعف أيضا وجود مقالات عَقَدية أدّت إل تفرّق الأمة إلى فِرَق متنازعة وانتشار الضغائن بين بعض العلماء وامتدادها إلى العامة؛ فأثّر ذلك عل تماسك المجتمع، بل أفضى إلى نشوب كثير من الفِتن المذهبية. واستغل الفرنجة بعض فرق الشيعة التي تواطأت معهم. كما نجد عوامل أخرى منها طبيعة نظام الجندية، وافتقاد كثير من المسلمين ملَكة المدافعة عن أنفسهم، وتمكُّن الخَوَر منهم. بالإضافة إلى وجود كثير من مظاهر الإنحراف السلوكي التي تُبيّن تراجع مستوى تدين الأمة مقارنة بفترات سابقة.

الكلمات الدالة: المشرق الإسلامي، عوامل الضعف، الفرنجة، السلاجقة، الباطنية، الفرق الكلامية.

Abstract :

There had been many decline factors in the middle East during the 5th and 6th c.h that provided suitable circunstances to European countries in order to lead military campaigns. These latter were destructive and resulted in the establishment of four christian provinces. This period had been a major disaster on the Islamic Empire.Of these decline factors, there was political turmoil and its effects. The Islamic power split into many states and Emirates .
The most important decline factor, though, was the religious deviations that led to the division of the empire into fractions, some of which had sided with the Christian invadeis.On the other hard, the military organisation of state troops commonly called contributed to the decline of the middle East due to its negative influence. Finally, there was a remarkable decay both in religious discipline and ethics that affected all society classes. .
Keywords :Decline factors–Middle east-Political turmoil- The Syrian coasts-Eropean countries.

1.مقدمة:

لقد تعرّض المشرق الإسلامي خلال أواخر القرن الخامس الهجري (ق11م) وإبّان القرن السادس الهجري (ق12م) لحملات صليبية مدمّرة في إطار ما عُرف بالحروب الصليبية التي استمرت خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري (ق13م)، وذلك كلّه راجع إلى وجود عدّة عوامل ضعف أطمعت كلّ عدوّ متربّص في بلاد المسلمين، وجرّأت الشعوب المحيطة بالعالم الإسلامي على غزوه والفتك بأهله وسبي نسائهم وولِدانهم والعمل على احتلال أقاليمه؛ ففيم تتمثّل هذه العوامل؟ وما أثر كلّ منها في إضعاف الأمة الإسلامية؟ وما أوجه الشبه بينها وبين عوامل الضعف خلال العصر الحاضر؟

ولعل تأثر وضع المشرق خلال (ق5هـ/ 11م) بتطورات القرون السابقة قد أدى إلى تعدد عوامل الضعف، وسنحاول في هذا البحث المختصر الإلمام بأبرز ها، لا سيّما التي تغفلها معظم البحوث، وإيضاح انعكاساتها الخطيرة. ونركز على مصادر المؤرخين المعاصرين لفترة الحروب الصليبية أو القريبين منها زمانيا، ونلتزم في ذلك كله الاختصار والتحليل الموجز.

2. التفكك السياسي و انعكاساته:

لقد كان أساس وحدة الأمة الإسلامية من الأسس الرئيسية التي بُنيت عليها دولة الإسلام خلال عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وظلّت الأمة متمسّكة بهذا الأساس خلال صدر الإسلام والخلافة الأُموية؛ فلم يُفْض – مثلا- الصراع بين عبد الملك بن مروان (الخليفة الأُموي الخامس ت86هـ/705م) وعبد الله بن الزبير الى استقرار وجود دولتين إسلاميتين؛ بل وُحّدت الأمة واستقرّ الأمر لعبد الملك، إذْ لم يكن في عامة الأمة ولا أهل الحل والعقد قابلية للتفكك السياسي، وذلك عامل مهم من عوامل القوة. ثم جرت تطورات مؤثّرة خلال مطلع العصر العباسي (بعد 132هـ/750م) أفْضت إلى بداية التفكك السياسي الذي تعمّق تدريجيا وترسخ؛ ففي أواخر القرن (5هـ/ 11م) – قُبيل بداية الحملات الصليبية- كان المشرق الإسلامي في انقسام سياسي حادّ وضعف ظاهر. وقد حذّر الله تعالى الأمة من عواقب النزاع والتفرق فقال عزّ وجل: "وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين."(الأنفال: 46)[1]

ووُجدت في الاقليم الواحد أكثر من دولة؛ ففي العراق نجد الخلافة العباسية التي كانت عوامل الضعف قد أنهكتها منذ أواسط القرن الثالث الهجري (ق9م)، وخلال أواخر القرن الخامس الهجري (ق11م) اقتصرت سلطتها الفعلية على بعض أجزاء العراق، رغم أن بعض ملوك الأطراف والمتغلّبين يخطبون للخليفة على المنابر. كما أن الخلافة خلال هذة الحقبة كانت في ظل النفوذ السلجوقي الذي امتد إلى العراق منذ أواسط هذا القرن. وعشية بداية الحملات الصليبية كان خليفة الوقت هو المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بن محمد بن القائم بأمر الله، وخلافته بين عامي (487- 512هـ/ 1094- 1118م)، وكان كما ذكر ابن الاثير " ... كريم الأخلاق...مشكور المساعي...". وخلفه ابنه المسترشد (512هـ/ 1118م) فحاول إزالة النفوذ السلجوقي لكنه هُزم وظفر به السلطان مسعود بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي (ت 547هـ/ 1152م) في نواحي همذان سنة 529هـ/ 1134م فأسره. [2]

وإذا نظرنا إلى شروط الصلح بين السلطان مسعود والمسترشد أدركنا مدى صعوبة الظروف التي أحاطت بالخلافة؛ فقد قال ابن الأثير: "...وترددت الرسل بينهما في الصلح وتقرير القواعد على مال يؤديه الخليفةُ، وأن لا يعود يجمع العساكر، وأن لا يخرج من داره." ثم لم يتم شيء من ذلك إذْ اغتيل الخليفة فجأة، وقيل إن ذلك كان بتدبير السلطان. وهكذا كانت نهاية هذا الخليفة الذي حاول جاهدا بعث مجد الخلافة واجتمعت فيه كثير من المؤهلات؛ قال ابن الأثير: "...وكان شهما شجاعا كثير الإقدام بعيد الهمة وأخباره...تدلّ على ما ذكرناه." وقال الذهبي: "...ولم يل الخلافة بعد المعتضد بالله أشهم منه. كان بطلا شجاعا مقداما شديد الهيبة، ذا رأي ويقظة

وهمة عالية."[3] فإذا كان هذا مثال خليفة قوي النفس، فكيف يكون الوضع بوجود خليفة فاتر الهمة؟ كما نلاحظ انشغال السلطان المذكور بقتال الخليفة وتركه جهاد الفرنجة.

ولا شك في أن أبرز دول المشرق الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (ق11م) كانت دولة السلاجقة غير أنها تفككت إثر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان سنة 485هـ/ 1092م، فاستقر تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان في جزئها الشامي، واقتُسمت الأقاليم الأخرى (العراق، أذربيجان، خُراسان...) بين أبناء ملكشاه بركياروق (ت498هـ/ 1104م) ومحمد (ت511هـ/ 1117م) وسنجر (ت552هـ/ 1157م). وفي الوقت الذي كانت فيه كنيسة روما ودول النصارى في أوروبا تحشد الجيوش للمسير إلى المشرق، والإعداد قائم على ساق، كانت الفتن مستعرة بين أبناء البيت السلجوقي ففي سنة 488هـ/ 1095م التقى تتش وابن أخيه بركياروق بنواحي الري، فانهزم جيش تتش وقاتل هو حتى قتل، فاستقرّ ولده رضوان (ت507هـ/ 1113م) في حلب، وولده الآخر دقاق (ت 497هـ/ 1103م) في دمشق، ثم جرت بينهما وقعة في نواحي حلب (سنة 490هـ/ 1097م) فهُزم دقاق، ثم اصطلحا بعد ذلك. واستمرت الفتن رغم وصول الحملة الصليبية الأولى إلى شمال الشام (490هـ/ 1097م)؛ ففي سنة 493هـ/ 1100م نشب صراع بين بركياروق وأخيه محمد فانكسر بركياروق في نواحي همذان، ثم ارتحل إلى خُراسان، فاستعد لحربه أخوه الآخر سنجر، فرجع خائبا وقصد أصبهان فسبقة إليها محمد، فسار إلى الأهواز. وفي عام 494هـ / 1101م جرت وقعة أخرى بين بركياروق ومحمد وهُزم هذا الأخير، فسار إلى سنجر صاحب خُراسان، وتردّدت الرسل بينهما حتى تحالفا واتفقا، وقصدا بركياروق الذي كان في الري، وخرّب جيشهما بعض المناطق و"عمّ الغلاء تلك الأصقاع، حتى أكل الناس الميتة والكلاب".[4] وفي هذا دلالة على انعكاسات هذه الفتن على الوضع الاقصادي والاجتماعي.

أما بركياروق فتقهقر أمامهما وقصد بغداد فوصلها في نحو خمسة آلاف فارس، وأرسل إلى المستظهر يشكو الضائقة وقلة المال، –ولم يكن الخليفة قادرا على مدافعته ولا مدافعة محمد وسنجر–، فتقرّر الأمر بعد مراجعات على خمسين ألف دينار أرسلها الخليفة إليه. قال ابن الأثير: "... ومد بركيارق وأصحابه أيديهم إلى أموال الناس، فعمّ ضررهم وتمنى أهل البلاد زوالهم عنهم." وفي أواخر عام 494هـ/ 1101م وصل محمد وسنجر إلى بغداد، فرأى أصحابها أصحاب بركياروق على الجانب الغربي من دجلة "وجرى بينهما مراماة وسباب" كما ذكر ابن الأثير. (وذلك يدلّ على استحكام العداوة بينهم ومدى انشغالهم عن جهاد العدو الصليبي). ثم غادر بركياروق

بغداد وهو مريض ونهب أصحابه البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط، وكانوا كلّما عبروا قنطرة هدموها خوفا أن يتبعهم السلطان محمد، (وهذا يشير إلى عمق انعكاسات هذه الفتن على الحياة الاقلصادية)، ولحق أهل واسط منهم نهب. ثم فارق بركياروق واسط واجتمع عليه أربعة آلاف فارس، فاتجه لمحاربة محمد، وجرى بينهما مصاف ثالث سنة 495هـ/ 1102م قرب روذراور (في نواحي همذان)، وبعد مناوشات عُقد صُلح وانصرف الفريقان من المصاف.(5)

وبعد نحو شهرين وقع بينهما مصافٌ رابع عند الري فهُزم محمد ونُهبت خزائنه وفرّ إلى أصبهان فتحصن بها، وتبعه بركياروق فحصر المدينة وضيّق عليها، فقلّت الأموال فاستقرض محمد من أعيانها مالا عظيما، ثم طالبه جنده بالمزيد "فقسّط على أهل البلد شيئا آخر، وأخذه منهم بالشدة والعنف، فلم تزل الأسعار تغلو...". وتمكن محمد من مغادرة المدينة. وقد ذكر ابن الاثير في عرضه هذه الأخبار ما يبين شدّة خطورة انعكاسات هذه الفتن؛ إذْ قال: "...فلما فارق محمد أصبهان اجتمع من المفسدين ...من يريد النهب ما يزيد على مائة ألف نفس، وزحفوا إلى البلد بالسلاليم ...وطموا الخندق بالتبن، والتصقوا بالسور، فقاتلهم أهل البلد قتال من يريد أن يحمي حريمه وماله، فعادوا خائبين، فحينئذ أشار الأمراء على بركياروق بالرحيل فرحل ثامن عشر ذي الحجة من السنة..." (495هـ/1102م) إلى همذان. وفي السنة الموالية جرت وقعة أخرى بين الأخوين عند مدينة خُوي (إحدى أبرز مدن أذربيجان) وانهزم محمد، ثم اصطلحا سنة 497هـ/ 1103م فاستقر بركياروق على الري وفارس والجزيرة الفُراتية... واستقر محمد على أذربيجان وأرمينية والعراق.... وقد لخّص ابن الأثير بعض نتائج هذه الفتن فقال: "...عمّ الفساد، فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعا فيها، محكوما عليها، وأصبح الملوك مقهورين، ....وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويخارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم..." (6)(فنلاحظ ضيق الأفق لدى هؤلاء الأمراء الذين يُقدّمون المكاسب الذاتية على مصير الأمة ودينها).

ومن أبرز دول المشرق خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (ق11م) الدولة العُبيدية(7) (الفاطمية) في مصر، وقد طرقتها مظاهر الضعف خلال هذه الفترة، فمما يبين ذلك انحسار نفوذها من معظم أنحاء الشام، إذْ استولى عليه السلاجقة والفرنجة خلال عهد المستنصر بالله معَدّ بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز (427- 487هـ/ 1036- 1094م) وعهد ابنه المستعلي بالله أحمد (487- 495هـ/ 1094 – 1102م). ونجد كذلك إمارات صغيرة في الجزيرة الفُراتية وشمال العراق وغير ذلك، فمنها إمارة الحلة السيفية؛

حيث برزت زعامة أسرة أسَدية (من بني أسد) في مناطق من شمال العراق، ومن أعلامها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي الأسدي الذي اختطّ سنة 495هـ/ 1102م مدينة الحلة السيفية على ضفة الفرات، وكانت وفاته عام 501هـ/ 1107م فخلفه ابنه دبيس الذي حارب الخليفة المسترشد (سنة 517هـ/ 1123م) فهُزم دبيس ثم سار إلى نواحي البصرة فعاث فيها فسادا. وفي سنة 523هـ/ 1129م جدّد نشاطه فعاث بنواحي بغداد وسلب حوالي خمس مئة ألف دينار، وعاد سنة 529هـ/ 1134م لمحاربة الخلافة برفقة السلطان السلجوقي مسعود. فنلاحظ انخراط هذة الإمارة – التي استمر وجودها حتى سنة 558هـ/ 1163م- في الفتن والصراعات.(8)

وقد أفضى تفكك دولة السلاجقة إلى ظهور ما اصُطلح على تسميته بسلاجقة العراق وسلاجقة الشام، وقد تقدم ذِكر بعض أخبارهم، وكذا ظهور سلاجقة قونية (وهي مدينة في وسط الأناضول)، وشملت دولتهم وسط وشرق الأناضول، فقُبيل وصول الحملات الصليبية كان سلطانهم قِلْج أرسلان بن سليمان بن قُلتُمش، وعهده بين عامي (485- 500هـ)(1092- 1106م)، وقد قتل في سعيه لإلحاق الموصل (500هـ/ 1106م)، فخلفه ابنه ملكشاه حتى سنة 510هـ/ 1116م، ثم ولي ركن الدين مسعود بن قلج أرسلان بين عامي (510- 551هـ)(1116- 1156م)، واستمر وجود هذه الدولة حتى أوائل القرن الثامن الهجري (ق14م)، وانخرط بعض سلاطينها في الفتن والصراعات التي تُعدّ من أبرز عوامل ضعف العالم الإسلامي. وإلى جانب الفروع السابقة انفصل فرع سلجوقي بكرمان (إقليم يلي بلاد فارس إلى الشرق). وكل ما تقدّم يبيّن مدى رسوخ التفرق السياسي، وفي ظله كثُر الأمراء المتغلبون، فلم يكن نفوذ بعضهم يتجاوز مدينة ونواحيها، وهذا الوضع أفضى إلى تصاعد خطر كلّ عدوّ متربص.(9)

ويقف المتأمل في مصادر هذه الفترة على معطيات تبيّن إيثار بعض السلاطين التوسع في إمارات إسلامية على جهاد الفرنجة فقد قال الذهبي – مثلا- ضمن حوادث سنة 509هـ/ 1115م: "فيها قدم عسكر السلطان" – أي محمد بن ملكشاه- "الشام وعليهم برسق للانتقام من طغتكين(10) لا للجهاد، فنهبوا حماة وهي لطغتكين، فاستعان بالفرنج فأعانوه. ثم سار برسق فأخذ كفر طاب وهي للفرنج... فساق صاحب أنطاكية "(الإفرنجي) "فكبس العسكر وكسرهم، ورجع من سلم مع برسق منهزمين نعوذ بالله من الخذلان. واستضرت الفرنج على أهل الشام. ونلاحظ هنا أيضا إدراك الفرنجة أهمية تفرق المسلمين كعامل يساهم في تثبيت الامارات

الصليبية؛ لذلك أنجدوا طغتطين – رغم أنه كان حريصا على جهادهم – خوفا من استيلاء السلطان محمد على دمشق وأعمالها فيتقوى بذلك. (11)

ومن أخطر انعكاسات التفكك السياسي استنجاد بعض المنخرطين في الفتن بالفرنجة، وفي تطورات القرن السادس الهجري (12م) أمثلة على ذلك؛ منها ما ذكره ابن الاثير في حوادث سنة 498هـ/ 1104م، فبعد وفاة دقاق بن تتش (497هـ/ 1103م) صار الأمر في دمشق لطغتكين فغادر أحد أبناء تتش دمشق (498هـ/ 1104م) وراسل الفرنجة مستنجدا بهم على طغتكين. كما نشير إلى عنصر آخر من مظاهر الوهن السياسي؛ وهو تولي السلطنة في سن مبكرة؛ فيكون السلطان غِرا لا مِراس له، وفي تاريخ السلاجقة عدة نماذج من ذلك؛ ففي سنة 507هـ/ 1113م- مثلا- توفي رضوان بن تتش صاحب حلب؛ فخلفه ابنه ألب أرسلان الأخرس وعمره ست عشرة سنة؛ فاستولى أحد الأمراء على الأمور، ولم يكن "للأخرس معه إلا اسم السلطنة."(12)

3. المذاهب العَقَدية وآثارها:

لقد كان للمذاهب والفِرق تأثير قويّ على تاريخ الأمة الإسلامية، تتجلى مظاهره في الحياة السياسية والعلمية والاجتماعية وتعود بداية الحياة المذهبية إلى القرن الأول الهجري (ق7م)؛ حيث ظهرت خلاله طائفتا الخوارج والشيعة، ورغم ذلك فقد بقي جمهور الأمة في عافية عَقَدية وفكرية، فأصبحوا يُعرفون بأهل السنة والجماعة. وشهد النصف الأول من القرن الثاني الهجري (ق8م) ظهور طائفتين مؤثرتين كانت لهما آثار قوية خلال القرون اللاحقة؛ الأولى: الجهمية: وتُنسب إلى مؤسّسها أبي محرز الجهم بن صفوان (ت128هـ/ 746م) وكان ظهورها في مدينة تِرمذ بخُراسان، ثم امتد تأثيرها تدريجيا. ومن مقالاتها العَقَدية المخالفة للنصوص الشرعية إنكار جميع أسماء وصفات الله عزّ وجلّ، والقول بأن القرآن مخلوق، والزعم أنّ الإيمان هو مجرد معرفة القلب أن الله هو الرب الخالق، ولا عبرة عندهم بالإقرار باللسان ولا بالأعمال. كما ينكرون كثيرا من أمور المعاد كعذاب القبر ونعيمه وشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.(13)

وأما الطائفة الثانية فهي المعتزلة، وقد ظهرت في البصرة (ق2هـ/ 8م) على يد واصل بن عطاء الغزال (ت131هـ/ 749م) الذي اعتزل حلقة الفقيه الشهير الحسن بن يسار البصري (ت110هـ/ 728م) في جامع البصرة بعد اختلافهما في حُكم مرتكب الكبيرة فسُمي أصحاب واصل بالمعتزلة. ومن آراء هذه الفرقة التي خالفوا فيها الكتاب والسنة نفي صفات الله تعالى، والقول بخلق القرآن. وخلال القرن الرابع الهجري (ق10م) ظهرت فرقتا الماتُريدية والأشاعرة –كامتداد للجهمية والمعتزلة – فحصل بذلك انشقاق أثر بقوة على المجتمع والحياة

العلمية، فأما الماتُريدية فتُنسب إلى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتُريدي السمرقندي الحنفي (ت 333هـ/ 944م). والماتُريدي: نسبة إلى ماتُريد، وهي محلّة في سمرقند ببلاد ما وراء النهر. وتنفي الماتُريدية صفات الله تعالى إلا ثمان صفات منها الحياة والعلم والقدرة والإرادة؛ فقد تأثّرت بانحرافات الجَهمية والمعتزلة، وانتشرت العقيدة الماتُريدية تدريجيا في بلاد ما وراء النهر وخُراسان بين كثير من فقهاء الحنفية خلال القرن الخامس الهجري (ق 11م) وما بعده.(14)

وأما الأشاعرة فتُنسب إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشير الأشعري البصري (ت330هـ/ 942م). وأشعَر: قبيلة من العرب اليمانية. وكان الأشاعرة الأوائل يُثبتون قسما من الصفات وينفون قسما آخر، ثم توسع الذين من بعدهم في نفي الصفات حتى لم يثبتوا إلا سبعا منها. وانتشر هذا المذهب بين فقهاء الشافعية خلال القرن الخامس الهجري (ق11م) وما بعده. وقد عُرفت المذاهب الأخيرة بمذاهب المتكلّمين، وكانت لها آثار خطيرة على الأمة؛ منها اشتمال هذه المذاهب على مخالفات كثيرة للكتاب والسنة، ومنها انشغال عدد كبير من أذكياء العلماء بالتصنيف في الدعوة إليها بدل التصنيف في العلوم النافعة، ومنها كذلك تفرّق الأمة إلى فرق متنازعة وانتشار الضغائن بين بعض العلماء وامتدادها إلى العامة؛ فأثر ذلك على تماسك المجتمع، بل أفضى إلى نشوب كثير من الفتن المذهبية التي تبيّن عمق تأثير الحياة المذهبية على الأمة، على غرار فتنة أبي بكر عتيق البكري المغربي الأشعري (ت 476هـ/ 1083م) الذي دخل بغداد سنة 475هـ/ 1082م فدرّس في مساجدها واستخفّ بأهل الحديث وانتصر لمقالة الأشاعرة فنشبت فتنة بسبب ذلك، واستعان البكري بجماعة من الجُند السُّلجوقي ببغداد؛ قال الذهبي: "...فصعد البكري على المنبر "(في جامع المنصور) "والأتراك بالقِسِيّ والنشاب حوله كأنه حرب فنعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ...".

ومن الفتن أيضا فتنة أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القُشَيري الأشعري (ت514هـ/ 1120م)، قدم بغداد سنة 469هـ/ 1076م فدرّس بها وهاجم أهل الحديث " وحميت الفتنة، وقُتل جماعة." ومما زاد من خطورة هذه الفتن ميل بعض أولي الأمر إلى المتكلمين؛ فقد كان – مثلا- الوزير السُّلجوقي نظام المُلْك الحسن بن علي الطُوسي (ت 485هـ/ 1092م) يميل إلى الأشاعرة، فوفد عليه عتيق البكري الأشعري المتقدَّم ذِكره، "فنفق عليه وكتب له كتابا بأن يجلس بجوامع بغداد." فاستغل ذلك لمهاجمة مخالفيه والاستخفاف بهم. (15)

ومن ناحية أخرى عرف التشيع تطورات متواصلة أدّت إلى ظهور فِرَق عديدة ذات انحرافات عميقة؛ فخلال القرن الخامس الهجري (ق11م) كانت الإثناعشرية أبرز الفرق الشيعية في المشرق، وسُموا بذلك لاعتقادهم أن الإمامة (الخلافة) محصورة في إثني عشر رجلا من أهل البيت أولهم الخليفة الراشد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وآخرهم محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي الذي يزعمون أنه اختفى في سرداب بسامراء وهو صبيّ (سنة 264هـ/ 878م)، فلقّبوه بالمهدي وصاروا يرتقبون خروجه ليبايعوه، وهذا يُبيّن إغراقهم في الظنون والأوهام. ومن انحرافاتهم أيضا ادّعاؤهم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالخلافة لعلي رضي الله عنه، وأنّ الصحابة لم ينفذوا الوصية فبايعوا أبا بكر رضي الله عنه، ومن بعده عمر وعثمان (رضي الله عنهما). كما تدعي الإثناعشرية عِصمة الأئمة الإثني عشر، وأنّ الصحابة قد ارتدوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنّ القرآن محرف ومبدل؛ نُقص منه وزيد فيه بزعمهم الباطل.(16)

وكان للإثني عشرية وجود معتبر في العراق خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين (ق11/ 12م) خاصة في الكوفة والحلة وبغداد وقد نشبت بينهم وبين بعض عوام أهل السّنة في بغداد فِتن كثيرة تُبيّن عمق تأثير الفرق على تماسك المجتمع، وأن الانحراف العَقَدي منبع للانحراف السلوكي، ومِعول هدم لوحدة الأمة؛ فمن تلك الفتن فتنة سنة406هـ/ 1015م بين جمْع من أهل الكرخ (محلة للشيعة في بغداد) وبين بعض عوام أهل السّنة، وفتنة سنة 421هـ/ 1030م، وهي من أشدّ الفتن، وقتل فيها جماعة وأُحرقت وهُدمت كثير من الأسواق؛ منها "سوق العروس وسوق الأنماط وسوق الصفارين وسوق الدقاقين"، ونُهبت عدّة مواضع و"نُهبت دور اليهود...لأنه قيل عنهم إنهم أعانوا أهل الكرخ." كما جرت سنة 441هـ/ 1049م فتنة، وفيها "قُتل جماعة وجُرح خلْق...، وتمّت لهم فتنة هائلة يوم عيد الفطر." وفي سنة 465هـ/1072م ثارت فتنة أخرى "قُتل فيها خلْق" وأُحرقت بعض أسواق الكرخ. وتكرر وقوع الفتن؛ فقد قال ابن كثير ضمن حوادث عام 478هـ/1085م: "وفيها كثرت الأمراض بالحمى والطاعون بالعراق والحجاز والشام، وأعقب ذلك موت الفجأة، ...ومع هذا كلّه وقعت فتنة عظيمة بين الرافضة والسّنة فقُتل خلْق كثير فيها." وقال في حوادث 481هـ/1088م: "...فيها كانت فتن عظيمة بين الروافض والسّنة ببغداد، وجرت خطوب كثيرة."(17)

ولا شك في أنّ كثرة هذة الفتن تعد من أبرز عوامل ترسيخ الانحراف العَقَدي والفكري؛ إذْ أنها تُعمّق الأحقاد فينتج عن ذلك استِنكاف أهل الانحراف عن النظر في أدلة أهل الحق؛ فيتغلّب التعصّب على الإنصاف، واتّباع الهوى على اتباع النصوص الشرعية، واتخاذ المواقف المذهبية المسبقة على تحرّي الحق. وهكذا كانت الفتن

المذهبية من أبرز ما ميّز تاريخ بغداد خلال (ق5- 6- 7هـ/ ق11-12- 13م)؛ ففي سنة 483هـ/ 1090م – على سبيل المثال- وقعت "فتنة هائلة لم يُسمع بمثلها بين السّنة " والشيعة "وقُتل بينهم عدد كثير" ونُهبت مواضع من بغداد، و"جرت أمور مزعجة". وفي سنة 487هـ/1094م وقعت فتنة أخرى "فأُحرقت محالّ كثيرة، وقُتل ناس كثير." كما جرت فتن في مدن أخرى على غرار فتنة سنة 407هـ/ 1016م في واسط، وفتنة سنة 510هـ/ 1116م في مدينة طوس بخُراسان.(18)

كما وُجد في المشرق قسم آخر من الشيعة هو الإسماعيلية، ويعود ظهور هذه الفرقة إلى القرن الثاني الهجري (ق 8م)؛ حيث جعلت طائفة من الشيعة الإمامة في إسماعيل بن جعفر الصادق بن موسى الكاظم العلوي (ت145هـ/ 762م) فصاروا يُعرفون بالإسماعيلية وتطلَق عليهم عدّة تسميات منها الباطنية؛ بسبب "حكمهم أن لكلّ ظاهر باطنا"؛ حيث زعموا – مثلا- أنّ معنى الصلاة موالاة إمامهم، ومعنى الحج زيارته وخدمته، ومعنى الصوم الإمساك عن إفشاء سرّ الإمام. وقد " قال علماء أن مذهبهم ظاهره " الغلو في التشيع "وباطنه الكفر المحْض."(19)

ولا مناص من الاشارة إلى أنّ الدولة العُبيدية قد نشأت على أساس مذهب الإسماعيلية، فاضطهدت أهل السّنة في بلاد المغرب ثم في مصر والشام، وأخبار ذلك مستفيضة. واعتبر الذهبي تخاذلهم في محاربة الفرنجة من عوامل استيلاء هؤلاء على الساحل الشامي؛ فقال ضمن ترجمة الآمر منصور بن المستعلي بن المستنصر (عهده بين عامي495- 524هـ/ 1102- 1130م): "وفي أيام الآمر أخذت الفرنج عكا سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وأخذوا طرابلس الشام في سنة اثنتين وخمسمائة فقتلوا وسبوا، وجاءتها نجدة المصريين بعد فوات المصلحة، وأخذوا ...بانياس وجبيل، وتسلّموا سنة تسعة عشرة وخمسمائة قلعة تبنين، وتسلّموا صور سنة ثمان عشرة، وأخذوا بيروت بالسيف في سنة ثلاث وخمسمائة، وأخذوا صيدا سنة أربع، ثم قصد الملك برديل مصر ليأخذها ودخل الفرما وأحرق جامعها...، وسار فأهلكه الله ...، وكان هو الذي أخذ بيت المقدس وعكا وعدّة حصون من السواحل، وذاك كلّه بتخلّف هذا المشؤوم الطلعة... وفي أيام أبيه أخذت الفرنج أنطاكية ... والقدس، وجرى على الشام أمر مهول من ظهور الرفض والسب " (أي ظهور مذاهب الإسماعيلية والإثني عشرية وسبهم للصحابة)، "ومن استيلاء الفرنج والسبي والأسر نسأل الله العفو والأمن."(20)

كما استنكر الذهبي تضييق هذه الدولة على المحدّثين وبثّها الخرافات الباطنية؛ فقال ضمن ترجمة المحدث الحافظ إبراهيم بن سعيد بن عبد الله المصري المعروف بالحبّال (ت482هـ/1089م): "...وكانت الدولة الباطنية

قد منعوه من التحديث، وأخافوه وهددوه، فامتنع من الرواية...، قبّح الله دولة أماتت السُّنة ورواية الأثارة النبوية، وأحيت الرفْض والضلال، وبثّت دُعاتها في النواحي تُغوي الناس، ويدعونهم إلى نِحْلة الإسماعيلية، فبِهم ضلّت جبَلية الشام" (ظهور الدروز الآتي ذكرهم) "وتعثّروا، فنحمد الله على السلامة في الدين."[21]

وتفرّعت خلال أواخر القرن الخامس الهجري (ق 11م) عن الإسماعيلية فرقة الحشّاشين، وسُموا بذلك للتعاطيهم الحشيش المسْكر وظهروا بأصبهان ونواحيها، ووجدوا في انشغال سلاطين السلاجقة (بركياروق ومحمد) بالفتن ظرفا ملائما لجذب الأتباع، ثم استولوا على قلعة الألموت (خلال أواخر القرن المذكور) وعلى قلاع أخرى، وتزعمهم الحسن بن الصباح الذي كان داعية للعُبيديين في مصر، ثم انتقل إلى نواحي أصبهان فنشط هناك لاستقطاب الأتباع، وكان –كما ذكر الذهبي– "من دهاة العالم وشجعانهم وشياطينهم". واعتمد الحشّاشون على الاغتيالات التي بثّوا بها الرعب في أصبهان والعراق والشام، فاستهدفوا السلاطين والأمراء والعلماء والقضاة، لا سيّما المحذرين منهم والمحرّضين على جهادهم؛ قال الذهبي: "وغلت الأقطار بالباطنية...، وتعانوا شغل السكين" – أي الاغتيال بالسكاكين– "وقتلوا غيلة عدّة من العلماء والأمراء، وأخذوا القلاع وحاربوا وقطعوا الطرق، وظهروا أيضا بالشام، والتفّ عليهم كل شيطان ومارق، وكل ماكر ومتحيل."[22]

ويتبيّن لنا مما تقدم أن التفكك السياسي يُعد من العوامل التي يسّرت نشاط الفرق المنحرفة؛ فإن الحسن بن الصباح ظل مستوليا على قلعة الألموت حتى وفاته سنة 518هـ/ 1124م فخلفه ابنه محمد، واستمر وجود الإسماعيلية في تلك القلعة طوال القرن السابع الهجري (ق12م). ويمكن تلخيص معتقدهم في "الدعوة إلى الإلحاد والكفر بالنبوات وإبطال الشرائع وإنكار البعث والحساب وتأويل أركان الإسلام..."[23]

كما انبثقت عن الإسماعيلية فرقة الدروز خلال القرن (5هـ/ 11م)، وتُنسب إلى أحد دعاة الباطنية هو محمد بن إسماعيل الدرزي (ت411هـ/ 1020م)، الذي انتقل سنة 408هـ/ 1017م من مصر إلى وادي التيم بنواحي مدينة بانياس (في بلاد الشام) وتقطنه قبيلة تنوخ العربية، فدعاهم إلى تأليه الحاكم العُبيدي صاحب مصر والشام والحجاز، وهو أبو علي منصور بن العزيز نِزار بن المعز بن المنصور بن القائم بن عُبيد الله المهدي (عهده بين عامي 386– 411هـ/ 996– 1020م)، فأجابوه إلى ذلك، فتشكلت فرقة منحرفة جديدة. ولا يؤمن الدروز بيوم القيامة ولا الجنة ولا النار، وينكرون القرآن الكريم ويقولون إنه من وضْع سلمان الفارسي، كما ينكرون التكاليف الشرعية، ويستحلون دماء المسلمين، ويعادون رسُل الله تعالى.[23]

كما وُجدت في الشام فرقة باطنية أخرى شديدة الانحراف هي النُصيرية، أسّسها أحد غُلاة الشيعة يُعرف بأبي شُعيب محمد بن نُصير المتوفى سنة 270هـ/ 883م، وقيل سنة 260هـ/ 874م. وعقيدة النُصرية مُركّبة من عدّة خرافات؛ حيث يُؤلهون علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) زاعمين أنه إلهٌ في الباطن وإمامٌ في الظاهر، وأنّ "الله تجلّى في علي". ويقولون بالتناسخ أي انتقال الروح من جسم بشري إلى جسم آخر، وأنّ ذلك يكون أحيانا بين البشر والبهائم. ويعود سبب تعلقهم بالتناسخ إلى أنهم لا يؤمنون بيوم القيامة ولا بالحساب والجزاء في الآخرة؛ فالقيامة عندهم إنما هي خروج الروح من بدن ودخولها في بدن آخر. ومن عقائدهم كذلك "تعظيم الخمر" واستحلالها وإباحة نكاح البنات والأخوات والأمهات، وإسقاط التكاليف الشرعية.(24)

ورغم قلة النُصيرية فقد استمرّ وجودهم في المشرق، وتركزوا في منطقة جبل السماق الواقعة في النواحي الغربية لمدينة حماة. ولا شك في أن فرق الباطنية –ومنها النُصيرية– من أشدّ الفرق خطورة على الأمة؛ فهي تستهدف هدم العقيدة الإسلامية وبثّ العبث الفكري والانحلال الخلقي ونشر عقائد من ديانات الحضارات القديمة ودعم أعداء الأمة. وقد سُئل الفقيه الشهير تقي الدين عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الدمشقي (ت728هـ/1327م) عن النُصيرية فأجاب أنهم "مع سائر أصناف ... الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل التتار والفرنج وغيرهم ...فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي،...ولا جنّة ولا نار،...بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأوّلونه على أمور يفترونها يدّعون أنها علم الباطن. فإنهم ليس لهم حدّ محدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته، وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه؛ إذْ مقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكلّ طريق، مع التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها... من جنس قولهم إنّ الصلوات الخمس معرفة أسرارهم، والصيام المفروض كتمان أسرارهم..." وقال مُبيّنا خطر فِرق الباطنية عموما من الناحية الحربية ودورهم في نجاح الحملات الصليبية: "ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنّفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرة الحجاج وألقوهم في بئر زمزم " (يُشير إلى قتل القرامطة للحجاج في مكة سنة 317هـ/ 929م) "...ومن المعلوم عندنا أنّ السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم" (يشير إلى تخاذل العُبيديين في محاربة الفرنجة كما تقدّم).(25)

كما بيّن ابن تيمية موقف النُصيرية من الفرنجة الصليبيين فقال: "وهم دائما مع كلّ عدوّ للمسلمين؛ فهم مع النصارى على المسلمين،...ومن أعظم أعيادهم إذا استولى والعياذ بالله تعالى النصارى على ثغور المسلمين." وشدّد النكير على من يُولّي الباطنية على أمور المسلمين فقال: "وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جُندهم فإنّه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم، فإنهم من أغشّ الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد...الدولة، وهم شرٌّ من المخامِر" – أي المتآمر– "الذي يكون في العسكر؛ فإن المخامر قد يكون له غرض؛ إما مع أمير العسكر...، وهؤلاء مع المِلّة ونبيّها ودينها وملوكها وعلمائها وعامّتها وخاصّتها. وهم أحرص الناس على تسليم الحصون إلى عدوّ المسلمين، وعلى إفساد الجُند على وليّ الأمر وإخراجهم عن طاعته. والواجب على ولاة الأمور قطعهم من دواوين المقاتلة فلا يُتركون في ثغْر، ولا في غير ثغْر، فإنّ ضررهم في الثغْر أشدّ، وأن يستخدم بدلهم من يحتاج إلى استخدامه من الرجال المأمونين على دين الإسلام، وعلى النصح لله ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، بل إذا كان ولي الأمر لا يستخدم من يغشّه وإن كان مسلما، فكيف بمن يغشّ المسلمين كلهم؟"(26)

وأكّد على ضرورة أخذ الحذر منهم فقال: "...وفيهم من يُعرف، وفيهم من قد لا يُعرف. فالطريق في ذلك أن يحتاط في أمرهم. فلا يُتركون مجتمعين، ولا يُمكّنون من حمل السلاح، ولا أن يكونوا من المقاتلة." وحثّ على دعوتهم إلى الحق فقال: " ويُلزمون شرائع الإسلام، من الصلوات الخمس وقراءة القرآن. ويُترك بينهم من يعلّمهم دين الإسلام، ويُحال بينهم وبين معلّمهم." كما حثّ على إيضاح حقيقة معتقدهم لعامّة الناس حيث قال: "...فلا يحلّ لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، ولا يحلّ لأحد أن يعاونهم على بقائهم في الجُند والمستخدمين...، والمعاون على كفّ شرهم وهدايتهم ...له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى."(27)

4. الانحرافات السلوكية:

لقد حارب الإسلام الانحرافات بكافة مظاهرها عَقَدية وفكرية وسلوكية، فكلّما قلّت مظاهر الانحراف تصاعدت القوة المعنوية للأمة وتبعت ذلك القوة المادية، ومكّن الله للمسلمين في الأرض؛ قال تعالى: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم

الفاسقون."(النور:55) وكلّما كثرت مظاهر الانحراف تراجع مستوى تدين الأمة وخارت قواها وانهارت معنوياتها وانشغل كثير من أبنائها بسفاسف الأمور فتجرأ عليهم كلّ عدو؛ ففي "سلسلة الأحاديث الصحيحة" أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تدعى الأَكَلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلّة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل. ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حبّ الدنيا وكراهية الموت."[28]

وإذا نظرنا إلى واقع المجتمع في المشرق الإسلامي خلال (ق5-6هـ/ 11- 12م) وجدنا كثيرا من مظاهر الانحراف السلوكي ورغم أنها لم تكن منتشرة انتشارا عاما في المجتمع إلا أنها تُبين التغيرات التي طرأت على هذا الأخير، وسنذكر نماذج قليلة جدا منها فحسب؛ مثل اعتراض بعض القبائل في أطراف العراق ونجد طريق الحجاج والإيقاع بهم ونهبهم كما جرى سنة 403هـ/ 1012م حيث سار جمع من بني خفاجة عليهم مفسد يعرف بفليتة الخفاجي إلى واقصة (موضع في طريق الحجاج) "فغوّر الماء وطرح في الآبار الحنظل"، ومكث ينتظر قافلة حجاج العراق، فلما وصلوا حبسهم ومنعهم من العبور، وطالبهم بخمسين ألف دينار، فخافوا وضعفوا وأجهدهم العطش فهجم عليهم فلم يكن عندهم منعة، "فاحتوى على الجمال والأحمال وهلك الخلق، فقيل: إنه هلك خمسة عشر ألف إنسان، ولم يفلت إلا العدد اليسير"؛ إذْ عاد الركب في حرّ الصيف ولا ماء لهم فهلكوا جميعا، وأفلت أمير الحجاج مع نفر "في أسوإ حال بآخر رمق." وتكرر مثل هذا العمل الشنيع في عدة سنوات؛ منها سنة 485هـ/ 1092م حيث هاجم بنوا خفاجة حجاج العراق و"قتلوا أكثر الجند الذين معهم" ونهبوا القافلة. والأعجب من هذا كلّه أن أمير مكة محمد بن أبي هاشم الحسيني العلوي الهاشمي أمر بنهب الحجاج سنة 487هـ/1094م وذلك يُبيّن مدى الانحطاط الذي انتهى إليه بعض أولي الأمر خلال هذه الفترة.[29]

وقد أفضى اعتراض طريق الحجاج إلى انقطاع الحج من العراق لعدّة سنوات خلال أواسط (ق6هـ/ 12م)، ولما استؤنف سنة 539هـ/ 1144م نشبت فتنة عظيمة بين أمير مكة هاشم بن فليتة بن القاسم الحسيني العلوي وبين أمير الحجاج، فنهب أصحاب هاشم الحجاج وهم في المسجد الحرام يطوفون ويصلون، وأغاروا على جمال الحجاج فانتهبوا نحوا من ألف جمل، ووقع قتال بين أصحاب هاشم والجند الذين مع الأمير فقُتل جماعة. وفي هذه السنة أيضا عاث بنو خفاجة فسادا في العراق، وأغاروا على القوافل حتى بلغت غاراتهم نواحي بغداد.[30]

ومن مظاهر الانحراف السلوكي على سبيل المثال لا الحصر انحرافات الصوفية؛ وهي كثيرة مثل تلبّس كثير منهم بما يُعرف بالوجْد، وهو الطرب الصوفي المرفق بالصياح وبعض الحركات الغريبة؛ قال الفقيه عبد الرحمان ابن

الجوزي البغدادي (ت597هـ/ 1200م) في حديثه عن "تلبيس إبليس على الصوفية في الوجد": "هذه الطائفة إذا سمعت الغناء تواجدت وصفقت وصاحت ومزقت الثياب، وقد لبّس عليهم إبليس في ذلك وبالغ...، فإذا طرب أهل التصوف لسماع الغناء صفقوا...، فإذا قوي طربهم رقصوا ...، فإذا تمكن الطرب من الصوفية في رحال رقصهم جذب أحدهم بعض الجلوس ليقوم معه، ولا يجوز للمجذوب على مذهبهم أن يقعد، فإذا قام قام الباقون تبعا له...، فإذا اشتدّ طربهم رموا ثيابهم على المغني؛ فمنهم من يرمي بها صحاحا، ومنهم من يخرقها ثم يرمي بها." ثم ذكر كثيرا من انحرافاتهم ومنها كون كثير منهم يستبيحون التمتع بـ " النظر إلى المستحسن" من الأحداث (المراهقون أو الأصاغر). ومن العجائب أن بعض مصنفي الصوفية رخصوا ما تقدّم؛ ومنهم أبو عبد الرحمان السُلّمي الصوفي[31] الذي صنّف كتابا سماه "سنن الصوفية" ذكر في أواخره الترخيص لهم – بزعمه- في "الرقص والغناء والنظر إلى الوجه الحسن". وما تقدم في هذا العنصر يمثل نماذج قليلة من مظاهر الانحراف.[32]

5. نظام الجندية:

اعتمدت دول المشرق الإسلامي في الجانب العسكري خلال (ق5-6/ 11- 12م) على المقاتلين الذين يتلقون الأعطيات (الرواتب)، وكان كلّ قسم من الجند يتبع أميرا فيكون معه في عمله (المنطقة التي يليها)، فكان صِلاتهم بالأمير قوية؛ وذلك ما يمكّن أحيانا الأمراء من عصيان السلاطين، وهذا من مظاهر الضعف العسكري. بالإضافة إلى سلبيات أخرى كثيرة منها محدودية مشاركة المتطوعة (المقاتلون الذين لا يتلقون الأعطيات) في العمل الحربي؛ وذلك راجع إلى عوامل منها ابتعاد نسبة كبيرة من أفراد المجتمع – لا سيّما أهل المدن- عن اتقان أساليب القتال فصار كثير منهم في عجز عن صدّ العدو الصائل؛ وقد أشار إلى هذا ابن خلدون فقال في "المقدمة" ضمن فصل "البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر": "...والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم إلى مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولّت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم ...فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزّلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم حتى صار خلقا يتنزل منزلة الطبيعة. وأهل البدو لتفرّدهم عن المجتمع... وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح... ويتجافون عن الهجوع إلا غرارا في المجالس... ويتفردون في القفر والبيداء... واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون لها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ، وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو

صاحبوهم في السفر عيال عليهم ...، وسبب ذلك ما شرحناه؛ وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه...، فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقا وملَكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجِبِلّة..."."[33]

ولنا في أخبار استيلاء الفرنجة على بيت المقدس (492هـ/ 1099م) عِبر ومثال جليّ على تضييع كثير من المسلمين ملَكة المدافعة عن أنفسهم وصدّ العدو ونموذج للخَور وانهيار القوة المعنوية؛ فقد قال ابن الأثير: "...وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف ..." ثم أشار إلى عظائم أخرى خاصة سبي الفرنجة للنساء والولدان. فنلاحظ عجز هؤلاء السبعين ألفا عن المدافعة رغم كثرتهم ورغم أن الهجوم لم يكن على حين غرة. كما نلاحظ عدم شمولية عبادتهم لكافة جوانب التعبد؛ إذْ أن الجهاد جزء من العبادة، لا سيّما إذا تعلق الأمر بجهاد الدفع.

ومن المعلوم أنّ العبادة لا تقتصر على الصلاة والذِكر؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة حريصين على الصلاة والذِكر من ناحية، والجهاد وبقية الأعمال الصالحة من ناحية أخرى. وقد اهتمّ بعض العلماء بإيضاح هذا المعنى الجامع للعبادة؛ حيث قال الذهبي: "...السلوك الكامل هو الورع في القوت، والورع في المنطق" (أي الكلام) "وحفظ اللسان وملازمة الذِكر.... والبكاء على الخطيئة، والتلاوة بالترتيل والتدبر...، والإكثار من الصوم المشروع، ودوام التهجد والتواضع للمسلمين وصلة الرحم والسماحة وكثرة البِشر، والإنفاق مع الخصاصة"- أي الحاجة- "وقول الحقّ المرّ برفق وتُؤدة ...والأخذ بالعفو والإعراض عن الجاهلين، والرباط بالثغر وجهاد العدو وحج البيت،... وكثرة الاستغفار في السَّحَر."[34]

6. الخاتمة:

لقد جعل الله تعالى سُننا كونية لا تتبدّل ومنها عوامل قوة الدول والشعوب والتمكين لها، وعوامل ضعفها واضمحلالها، ولقد اجتمعت في المشرق الإسلامي خلال (ق5-6هـ/ 11- 12م) عدة عوامل ضعف شكلت ظرفا مناسبا للدول الصليبية فاستغلته بتسيير حملات عسكرية أفْضت إلى إنشاء أربع إمارات صليبية (الرها، أنطاكية، بيت المقدس، طرابلس)، وإلحاق محن عظيمة بالأمة الإسلامية وهذا يُبين مدى خطورة وجود عوامل

الضعف وتراكمها؛ لا سيّما مع كثرة الأعداء المتربصين (مثل:الفرنجة، البيزنطيين، التتار، الأرمن، الكرج) وشدّة عداوتهم للإسلام وأهله. ونجد قواسم مشتركه بين هذه العوامل وبين عوامل الضعف خلال عصرنا الحاضر على غرار وجود الانحرافات العَقَدية والسلوكية وآثارها، وأثر التفكك السياسي. غير أن الفترة المعاصرة برزت فيها عوامل ضعف أخرى مثل عدم مسايرة الأمة الإسلامبة للتطور العلمي الذي بلغته الشعوب الأخرى. ونرى أن موضوع عوامل ضعف العالم الإسلامي من أهم ما ينبغي التركيز عليه في الدراسات التاريخية الموسعة لا سيما الأطروحات العلمية و المصنفات المستقلة.

7. الهوامش:

(1) – للمزيد بشأن وضع المشرق الإسلامي خلال القرن (5هـ/ 11م) أنظر: العروسي (محمد)، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، ط1، (بيروت / لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1403هـ/ 1982م)، ص 16، 17، 18.

(2) – ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد)، **الكامل في التاريخ**، (تحقيق: عمر تدمري)، ج1، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الكتاب العربي، 1417هـ/ 1997م)، وج8، ص 628، 629. وج9، ص 61- 66؛ العروسي (محمد)، المرجع نفسه، ص16، 17، 18.

(3) – ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد)، المصدر السابق، ج9، ص 64؛ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **العبر في خبر من غبر**، (تحقيق: محمد بن بسيوني)، ج2، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، دت)، ص 434.

(4) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، المصدر نفسه، ج2، ص 356، 362، 367؛ ابن الأثير، (عز الدين علي بن محمد)، المصدر نفسه، ج8، ص 442، 443.

(5) – ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد)، المصدر نفسه، ج8، ص 444، 445، 463؛ مؤنس (حسين)، **أطلس تاريخ الإسلام**، ط1، (القاهرة/ مصر، الزهراء للإعلام العربي، 1407هـ/ 1987م)، ص 220.

(6) – ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد)، المصدر نفسه، ج8، ص 465، 466، 493؛ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، المصدر نفسه، ج2، ص 373؛ الحموي (ياقوت بن عبد الله)، **معجم البلدان**، ج2، ط2، (بيروت/ لبنان، دار صادر، 1416هـ/ 1995م)، ص 408.

(7) – نشأت الدولة العبيدية سنة 296هـ/ 909م في إفريقية على يد أبي عبد الله الشيعي الداعي الإسماعيلي الباطني، وتُنسب إلى عُبيد الله المهدي (ت 322هـ/ 934م) أول ملوكها– الذين اتخذوا لقب: الخليفة –، والكلام في نسبه معروف. وقد امتدت الدولة إلى مصر والشام والحرمين خلال عهد رابع ملوكها المعز بن المنصور بن القائم بن عبيد الله، بعد استيلائه على مصر سنة 358هـ/

969م. (أنظر: ابن عذاري (محمد بن محمد المراكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، (تحقيق: كولان وبروفنسال)، ج1، ط3، (بيروت/ لبنان، دار الثقافة، 1404هـ/ 1983م)، ص 149.

(8) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **تاريخ الإسلام**، ج2، ص 371- 408، 417؛ الحميري (محمد بن عبد الله)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، (تحقيق: إحسان عباس)، ط2، (بيروت/ لبنان، مؤسسة ناصر للثقافة، 1401هـ/ 1980م)، ص197؛ شوقي (أبو خليل)، **أطلس التاريخ العربي الإسلامي**، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الفكر، دت)، ص 182.

(9) – ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد)، المصدر السابق، ج8، ص 540؛ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **العبر**، ج2، ص391؛ شوقي (أبو خليل)، المرجع نفسه، ص 220، 53، 221.

(10) – طغتكين: الأمير أبو منصور طغتكين، كان من أمراء تاج الدولة تتش، ولما قتل هذا الأخير (سنة488هـ/ 1095م) صار كبير أمراء دقاق بن تتش، وفي عام 497هـ/ 1103م توفي دقاق فتملك طغتكين دمشق وأعمالها، وكانت وفاته سنة 522هـ/ 1128م، وكان شهما شديدا على الفرنجة. (أنظر: الصفدي (خلبل بن أيبك)، **الوافي بالوفيات**، (تحقيق: أحمد الأرنؤوط ونركي مصطفى)، ج16، ط1، (بيروت/ لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ/ 2000م)، ص259.

(11) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **العبر**، ج2، ص 393.

(12) – ابن الأثير(عزالدين علي بن محمد)، المصدر السابق، ج8، ص 498، 495.

(13) – حديد (مختار)، **أثر النزعة المذهبية في الكتابة التاريخية عند المؤرخين المشارقة** خلال (ق7- 8هـ/ 13- 14م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة – الجزائر، 1441هـ، 2019م، ص 3.

(14) – السمعاني (عبد الكريم بن محمد)، **الأنساب**، (تحقيق: عبد الرحمان اليماني)، ج12، طَ1، (حيدر اباد/ الهند، مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1382هـ/ 1962م)، ص3؛ حديد (مختار)، المرجع نفسه، ص 14، 15.

(15) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **تاريخ الإسلام**، ص 395؛ **العبر** ،ج2، ص 325؛ ابن الجوزي (عبد الرحمان بن علي)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، (تحقيق: محمد عطا وعبد القادر عطا)، ج16، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، 1412هـ/ 1992م)، ص224؛ حديد (مختار)، المرجع نفسه، ص 15، 16.

(16) – حديد (مختار)، المرجع نفسه، ص 19، 20.

(17) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **العبر**، ج2، ص 278؛ ابن الجوزي (عبد الرحمان بن محمد)، المصدر نفسه، ج15، ص 111. وج16، ص 145؛ ابن كثير (إسماعيل بن عمر)، **البداية والنهاية**، (تحقيق: علي شيري)، ج12، ط1، (بيروت/ لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1408هـ/ 1988م)، ص 156، 165.

(18) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **العبر**، ج2، ص 212، 345؛ ابن كثير (إسماعيل بن عمرالدمشقي)، المصدر السابق، ج12، ص 181.

(19) – حديد (مختار)، المرجع السابق، ص21.

(20) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 422.

(21) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **سير أعلام النبلاء**، (تحقيق: مجموعة من المحققين)، ج18، ط3، (بيروت / لبنان، مؤسسة الرسالة، 1405هـ/ 1985م)، ص496، 497.

(22) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 289؛ **السير**، ج19، ص 403.

(23) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **تاريخ الاسلام**، ج11، ص289 ؛ القفاري (ناصر)، **مسألة التقريب بين السنة والشيعة**، ط2، (د.م، دار طيبة، ، 1413هـ/ 1992م)، ص128.

(23) – الخطيب (محمد)، **عقيدة الدروز**، ط1، (القاهرة/ مصر، دار البيان العربي، 1422هـ/ 2000م)، ص 113- 118؛ حديد (مختار)، المرجع السابق، ص25، 26.

(24) – عواجي (غالب)، **فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام**، ط4، (جدة/ السعودية، المكتبة العصرية، 1422هـ/ 2001م)، ص 561، 570؛ طعيمة (صابر)، دراسات في الفرق، ط1، (الرياض/ السعودية، مكتبة المعارف، 1403هـ/ 1983م)، ص44، 45.

(25) – ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم)، **النصيرية**، (الرياض/ السعودية، دار الإفتاء، د.ت)، ص 12، 13.

(26) – المصدر نفسه، ص 15، 24، 25.

(27) – المصدر نفسه، ص 26، 27، 30.

(28) – أنظر تخريج الحديث في: الألباني (ناصر الدين محمد)، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج2، ط1، (الرياض/ السعودية، مكتبة المعارف، 1415هـ/ 1995م)، ص647.

(29) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **تاريخ الإسلام**، ج9، ص 13، 256. وج10، ص 476، 480.

(30) – ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد)، المصدر السابق، ج9، ص135؛ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **تاريخ الاسلام**،ج12، ص 21.

(31) – هو أبو عبد الرحمان محمد بن الحسين بن موسى السلمي الصوفي النيسابوري ، توفي سنة 412هـ/ 1021م. وهو غير التابعي الشهير المقرئ عبد الله بن حبيب الكوفي المعروف بأبي عبد الرحمان السلمي المقرئ (ت 74هـ/693م). (أنظر: الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **العبر**، ج2، ص 222).

(32) – ابن الجوزي (عبد الرحمان بن علي)، **تلبيس إبليس**، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الفكر، 1421هـ/ 2001م)، ص 223، 230، 232، 236.

(33) – ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد الإشبيلي)، **المقدمة**، (تحقيق: خليل شحادة)، ط2، (بيروت/ لبنان، دار الفكر،1408هـ/ 1988م)، ص 155، 156.

(34) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **السير**، ج12، ص90، 91.

8. قائمة المصادر والمراجع:

8. 1. المصادر:

- ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد)، **الكامل في التاريخ**، (تحقيق: عمر تدمري)، ط1، (بيروت / لبنان، دار الكتاب العربي، 1417هـ/ 1997م.)

- ابن الجوزي (عبد الرحمان بن علي)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، (تحقيق: محمد عطا وعبد القادر عطا)، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، 1412هـ/ 1992م.)

- - - - - - - - - - - - - - - ، **تلبيس إبليس**، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الفكر، 1401هـ/ 2001م.)

- ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد الإشبيلي)، **المقدمة**، (تحقيق: خليل شحادة)، ط2، (بيروت/ لبنان، دار الفكر، 1408هـ/ 1988م.)

- ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم)، **النصيرية**، (الرياض/ السعودية، دار الإفتاء، د.ت.)

- ابن عذاري (محمد بن محمد المراكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، (تحقيق: كولان وبروفنسال)، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الثقافة، 1403هـ/ 1983م.)

- ابن كثير (إسماعيل بن عمر الدمشقي)، **البداية والنهاية**، (تحقيق: علي شيري)، ط1، (بيروت/ لبنان، دار إحياء التراث، 1408هـ/ 1987م.)

- الحموي (ياقوت الحموي)، معجم البلدان، ط2، (بيروت/ لبنان، دار صادر، 1416هـ/ 1995م.)

- الحِميري (محمد بن عبد الله)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، (تحقيق: إحسان عباس)، (بيروت/ لبنان، دار ناصر للثقافة، 1401هـ/ 1980م.)

- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **العبر في خبر من غبر**، (تحقيق: محمد بن بسيوني)، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، د.ت.)

- - - - - - - - - - - - - - -، **تاريخ الإسلام**، (تحقيق: بشار عواد)، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1425هـ/ 2003م.)

- - - - - - - - - - - - - - - ، **سير أعلام النبلاء**، (تحقيق: مجموعة من المحققين)، ط3، (بيروت/ لبنان، مؤسسة الرسالة،1405هـ/ 1985م.)

- السمعاني (عبد الكريم بن محمد)، **الأنساب**، (تحقيق: عبد الرحمان اليماني)، ط1، (حيدر أباد/ الهند، مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1382هـ/ 1962م.)

- الصفدي (خليل بن أيبك)، **الوافي بالوفيات**، (تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى)، ط1، (بيروت/ لبنان، دار إحياء التراث، 1420هـ/ 2000م).

8. 2.المراجع:

- الألباني (ناصر الدين)، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ط1، (الرياض/ السعودية، المكتبة المعارف، 1415هـ/ 1995م.)

- الخطيب (محمد)، **عقيدة الدروز**، ط1، (القاهرة/ مصر، دار البيان العربي، 1422هـ/ 2000م.)

- العروسي (محمد)، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1403هـ/ 1982م.)

- القفاري (ناصر)، **مسألة التقريب بين السنة والشيعة**، ط2، (د.م، دار طيبة، 1413هـ/ 1992م.)

- حديد (مختار)، **أثر النزعة المذهبية في الكتابة التاريخية عند المؤرخين المشارقة** خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة – الجزائر، 1441هـ/2019م.

- شوقي (أبو خليل)، **أطلس التاريخ العربي الإسلامي**، ط1، (بيروت/ لبنان، دار الفكر، د.ت.)

- طعيمة (صابر)، **دراسات في الفرق**، ط1، (الرياض/ السعودية، مكتبة المعارف، 1403هـ/ 1983م.)

- عواجي (غالب)، **فرق معاصرة تنتسب للإسلام**، ط4، (جدة/ السعودية، المكتبة العصرية، 1422هـ/ 2001م.)

- مؤنس(حسين)، **أطلس تاريخ الإسلام**، ط1، (القاهرة/ مصر، الزهراء للإعلام العربي، 1407هـ/ 1987م.)